الفصل السابع
طلـــب زواج

تأنق حمزة بشدة، وذهب مع أبيه، وأمه، وشقيقته جومانة لزيارة المهندس توفيق لخطبة ديما، واستقبلهما المهندس توفيق وزوجته أفضل استقبال، وقام العميد كامل بطلب يد ديما لحمزة فابتسم المهندس توفيق ووافق على الفور وقال: حمزة شاب محترم ويشرف أي عائلة أن تعطيه ابنتها.

غمرت السعادة حمزة، وكذلك والدته، وشقيقته بينما قال كامل: لقد كنت أخشى أن ترفض حمزة لصلة القرابة التي تربط بينه وبين ديما.

قال المهندس توفيق مبتسماً: صلة القرابة التي بين حمزة وديما ليست من الدرجة الأولى يا سيادة العميد لذلك لا يوجد منها قلق.

قال كامل: لكن ألن تأخذ رأي ديما فربما كان لها رأي آخر؟

نظر حمزة لوالده دهشاً بينما قال المهندس توفيق: ديما لا تعرف مصلحتها مثلما أعرفها أنا. وطالما وافقت أنا فأي كلام آخر ليس له أهمية.

تملكت السعادة من حمزة عند سماعه هذا الكلام وقال: حسناً. ما رأيك يا باشمهندس لو نقرأ سورة الفاتحة لمباركة هذا الكلام.

قال المهندس توفيق مبتسماً: فلنقرأها جميعاً حتى تطمئن يا حضرة الضابط.

وبالفعل تمت قراءة الفاتحة، وعمت السعادة الجميع.

****

وقفت ديما وسط والديها وشقيقيها أسامة وهاني في حالة انهيار تام وقالت: حرام عليك يا أبي لماذا تفعل بي ذلك؟

قال هاني: صراحة يا أبي أنا لا أوافقك فيما فعلته فتصرفك هذا لا يقبل به الشرع فكان لابد من أخذ رأي ديما فهي صاحبة القرار الأولى في هذا الموضوع وليس حضرتك.

انفعل توفيق وقال: يبدو إنك نسيت الأدب يا هاني. كيف تخاطبني هكذا؟

قال هاني: أنا أسف يا أبي، ولكن..

قاطعه توفيق قائلاً: ليس هناك لكن. لقد وافقت وانتهى الأمر. أم إنك تريدها أن ترتبط بذلك الولد أبن تلك المخادعة نادية؟

صمت هاني ولم يجيب بينما هرولت ديما نحو غرفتها قائلة ببكاء: والله هذا حرام.

اتصلت ديما بأدهم وهي تبك وقالت له: أنجدني يا أدهم. حمزة آتى إلى والدي بصحبة العميد كامل وطلب خطبتي، ووافق والدي.

دارت الدنيا بأدهم، وأصيب بحالة من الصمت فقامت ديما بالنداء عليه عدة مرات ثم خرج أدهم من دوامته وقال والدموع تنسال من عينيه: لا يا ديما. لابد أن تثني والدك عن قراره. أنت لو صرت لشخص غيري سأموت يا

ديما. أنت تعلمين إنه لا حياة لي بدونك. ديما أرجوك تمسكي بحبنا إن كنت فعلاً تحبيني.

قالت ديما ببكاء: أأنت حتى الآن تشك في حبي يا أدهم؟ لقد وقفت أنا وأخي هاني في وجه أبي ونهرنا بشدة، وأصر على موافقته بخطبتي لحمزة.

انفعل أدهم وقال: لست أدري لماذا يفعل عمي ذلك؟ لماذا يصر على أن يحرمني منكِ.

قالت ديما: ربما كان بسبب الخطاب الذي جاءه.

قال أدهم دهشاً: أي خطاب؟

قالت ديما: ألم تخبرك طنط نادية؟

قال أدهم: لم تخبرني أمي بشيء سوى أن والدك طلب منها أن أبتعد عنك فهل هناك شيء آخر؟

شعرت ديما أنها تسرعت في الكلام فقالت مرتبكة: لا. ليس هناك شيء آخر.

وهنا دخل عليها والدها الغرفة منفعلاً وقال: أمازلت تتحدثين مع هذا الولد. ألم أحذرك من ذلك؟

أغلقت ديما الهاتف وألقته على فراشها وقالت: أنا أكلم صديقة لي.

قال المهندس توفيق منفعلاً: أنا أحذرك للمرة الأخيرة. إياكِ أن تتحدثي مع هذا الولد أدهم بعد ذلك.

آتت نادية من الصيدلية في وقت متأخر، ووجدت أدهم يجلس في غرفة الإستقبال غارقاً في تفكير عميق فقالت له: ما الذي جعلك مستيقظاً حتى الآن يا أدهم؟

قال أدهم: ما موضوع الخطاب الذي وصل إلى عمي؟

ارتبكت نادية وقالت: خطاب!؟ أي خطاب؟

قال أدهم: أمي. لا داعي لإسلوبك هذا. لقد أخبرتني ديما إنه قد آتى خطاب إلى عمي توفيق ربما كان هو السبب في رفضه لي.

قالت نادية: لا يا أدهم هذا الخطاب ليس له شأن بك. ورفض عمك لك هو أخبرنا سببه كونك ابن عمها وذلك سيجعلكما تنجبان أطفال غير أصحاء.

قال أدهم: أمي هل هناك شيء تخفيه عني؟

اصطنعت نادية الابتسامة وقالت: منذ متى وأنا أخفي عنك شيئاً يا أدهوم؟ وهيا ادخل نم فلقد تأخر الوقت. وتركته هي، وسارت متوجهة نحو غرفتها بينما وقف أدهم، وبدا عليه عدم الإرتياح.

دلف عسكري مكتب العميد كامل إليه في مكتبه يخبره أن أدهم يريد مقابلته فتجهم وجه كامل، وطلب من العسكري إدخال أدهم.

دلف أدهم إلى حجرة مكتب العميد كامل يكسي الحزن وجهه، ورحب به العميد كامل ترحاباً حاراً لكن لم يشفع ذلك له فلقد أخذ أدهم ينظر إليه نظرات قاسية لاحظها كامل لكنه لم يعلق.

قال أدهم بحزن: أتعلم ما هو أصعب شيء على المرء يا سيادة العميد؟

لم يجيبه كامل فاستطرد أدهم قائلاً: أصعب شيء على المرء عندما يعطي كل ثقته وحبه لإنسان ثم يفاجئ بهذا الإنسان يكون سبباً في أكبر، وأعمق جرح يصاب به طوال حياته.

فهم كامل ما يرمي إليه أدهم فقال: أدهم. أرجوك تفهم الأمر.. قاطعه أدهم قائلاً: أنا متفهم الأمر جيداً سيادة العميد. ففي النهاية حمزة هو ابنك ولابد أن تفعل ما يحقق له السعادة، ولكن كنت أأمل بما أنك تعلم جيداً مدى حبي أنا وديما لبعضنا البعض أن تحاول إثناء حمزة على خطبتها. لقد جئت إليك يا سيادة العميد وطلبت منك أن تدعمني في طلب يد ديما من والدها لتقديري لك ولشعوري بإنك في مثابة أب لي، ولقد شعرت إنك تعاملني أيضاً بحنان كما لو كنت ابن آخر لك، ولكن للآسف اتضح إني كنت واهماً، فيبقى ابنك هو ابنك بينما يظل الغريب غريب وليذهب إلى الجحيم هو وحبه، وإحساسه.

كان العميد كامل يستمع إليه بحزن شديد، ولم يجد ما يقوله، وواصل أدهم كلامه قائلاً: لقد أتيت إليك الآن فقط لأخبرك إنني صدمت بك، وأعرفك إنني وديما سنظل معاً، ولن يستطيع ابنك أن يفرقنا أبداً مهما فعل.

ثم نهض أدهم، وغادر حجرة المكتب بينما أخذ العميد كامل يضرب الحائط بيده عدة مرات.

بينما تقف نادية داخل الصيدلية دلف إليها الرجل الغريب، واقترب منها قائلاً: كيف حالك يا نادية؟

نظرت إليه صامتة للحظات ثم قالت: جيد أنك أتيت. أريدك في موضوع هام.

التقى أدهم وديما بعد أن خرجت من كليتها، وفي أحد الكازينوهات المطلة على النيل جلسا يتحدثان، وفوجئ أدهم بألم في معدته فبدا ذلك على وجهه فقالت له ديما: ماذا بك يا أدهم؟ هل أنت بخير؟

قال أدهم متألماً: أشعر بألم في معدتي. أتأذنين لي بالذهاب إلى الحمام؟

قالت ديما: تفضل يا حبيبي، وهناك صيدلية بالخارج يمكنك شراء دواء منها.

أماء لها أدهم بالموافقة، وأسرع متجهاً إلى دورة المياه.

بعد مضي وقت ليس بقصير عاد أدهم واضعاً يده فوق معدته، وقال لديما: لا فائدة. يبدو إنها نزلة معوية فهيا بنا ننصرف يا ديما.

بدا القلق على ديما وقالت: أرجوك يا حبيبي لا تقلقني عليك.

قال أدهم: لا تقلقي يا حبيبتي سأكون بخير.

وقام أدهم بتوصيل ديما إلى مكان قريب من منزلها، وصعدت إلى شقة أسرتها ففوجئت بصراخ والدتها وبكاء شقيقاها أسامة وهاني ففزعت واضطرب قلبها، واسرعت نحو والدتها تسألها عم حدث فأخبرتها أمها أن

والدها قد مات مقتولاً فصرخت ديما بينما قال اسامة: لقد دخلت إليه فوجدته مطعوناً بسكينة كبيرة في قلبه.

واستمرت ديما في الصراخ حتى فقدت وعيها تماماً.

داخل أحد المساجد الشهيرة أقيم عزاء المهندس توفيق، وكان حمزة ينظر إلى أدهم باستمرار نظرات غاضبة قاسية لاحظها هاني فقال له: لماذا تنظرهكذا إلى أدهم يا حمزة؟

قال حمزة: أنا أشك في هذا الولد أن يكون هو القاتل.

قال هاني: ما هذا التخريف الذي تقوله؟

قال حمزة: أنا لست بمخرفٍ. هذا الولد كان على خلاف مع والدك بعد أن رفض خطبته لديما، وبالتالي لديه دافع قوي لارتكاب تلك الجريمة.

وقال أسامة: لا يا حمزة. أنا أستبعد ذلك تماماً. فأدهم شاب هادئ الطباع.

قال حمزة: هادئ الطباع؟ إذن لنجعل التحقيق هو الذي يظهر لنا إن كان هادئ الطباع أم قاتل ماهر يجيد تمثيل دور الملاك البريء.

قال أسامة: أتنوي القبض عليه؟

قال حمزة: بكل تأكيد.

نظر إليه أسامة، وهاني دهشة وقال هاني: لا تجعل خصومته لك في حب ديما تنسيك ضميرك يا حمزة فترمي بريئاً في السجن.

قال حمزة: اطمئن يا هاني ضميري سيكون مرتاح تماماً.

وبالفعل تم التحقيق مع أدهم، وعندما سئل عن مكان تواجده وقت ارتكاب الجريمة لم يجيب، والتزم الصمت فقررت النيابة حبسه على ذمة التحقيق لمدة أربعة أيام، وألقي بأدهم داخل غرفة السجن التابعة للقسم، ووسط الظلام، ومحترفي الإجرام جلس على الأرض يعتصره الحزن، وكان كل تفكيره متجهاً نحو ديما فماذا ستقول عنه الآن بعد أن أتهم بقتل والدها. هل ستصدق أنه بالفعل هو القاتل أم ستظل ثقتها به موجودة، ولن تتخل عنه.

وبينما هو غارق في تفكيره، وحزنه فتح باب غرفة السجن، ودلف إليها شخص يرتدي بدلة ضابط شرطة، وأخذ يسير ذلك الضابط نحو أدهم الذي ما أن أمعن النظر في وجهه حتى اكتشف أنه حمزة فقال أدهم: حمزة!

قام حمزة بجذب أدهم من ملابسه بقوة وهو يقول: أسمي حضرة الضابط حمزة.

نهض أدهم من مجلسه نتيجة جذب حمزة له وقال: ستظل في نظري حمزة ثقيل الظل، والذي لا يحبه أحد لتكبره، وغروره.

ضحك حمزة وقال: أتعلم أن ثقيل الظل المغرور المتكبر هذا هو الذي ألقاك في غياهب هذا السجن؟

قال أدهم دهشاً: أنت!؟ ولماذا يا حمزة؟ أبلغت كراهيتك لي كل هذا الحد؟

قال حمزة: أنت لم ترى شيئاً بعد أيها القاتل.

قال أدهم: أنا لم أقتل أحداً.

قال حمزة: لا يهم أن كنت القاتل أم لا. المهم إنك تظل سجيناً ملقياً هنا على الأرض وسط ذلك الظلام حتى تتعلم كيف لا تقحم نفسك في تحدي مع حمزة كامل الأسيوطي بعد ذلك.

قال أدهم: لا تظن إنك بهذه الطريقة ستحصل على ديما. ديما لا تحبك، وأنت بالنسبة لها لست سوى شخص ثقيل الظل، غبي متكبر.

قال حمزة منفعلاً: اخرس أيها الحقير.

وقام حمزة بضرب أدهم، ولكمه بقوة فسقط أرضاً، فأخذ أدهم يركله بقدمه، ولكن رغم ذلك قال أدهم: حتى لو قتلتني ستظل ديما تحبني أنا، وأنت لو كنت آخر رجل في الكرة الأرضية لظلت ديما تنفر منك، وتظل تكرهك.

قام حمزة بركل ساق أدهم بقوة ثم غادر غرفة السجن.

****

في منزل أسرة المهندس توفيق آتى حمزة لزيارتهم وقد بدت عليه السعادة، وجلس حمزة مع زوجة المهندس توفيق، وأسامه، وهاني.

وقال أسامة: أرى السعادة على وجهك يا حمزة فهل حدث شيئاً؟

قال حمزة: لقد تم التحقيق مع أدهم اليوم في قضية مقتل عمي توفيق.

قال أسامة: هل فعلتها يا حمزة؟

قال حمزة: نعم يا أسامة، ويبدو أن شكي في هذا الولد في محله فلقد قررت النيابة حبسه لمدة أربعة أيام.

قال هاني دهشاً: أنا لا أصدق أن يفعل أدهم ذلك.

قالت زوجة المهندس توفيق: ولماذا لا يفعلها أنسيت ما فعله والدك معه، ومع والدته؟

ووصل إلى آذانهم رنين جرس الباب ففتح هاني ووجد العميد كامل.

دلف العميد كامل مع هاني إلى حيث يجلس الآخرون، وبعد أن جلس قال بغضب محدثاً حمزة: ما هذا الذي فعلته؟ أوصل بك الحد أن تبلغ عن أدهم وتتهمه بقتل المهندس توفيق؟

قال حمزة: أنا ضابط شرطة يا أبي، ولا توجد عواطف في عملنا.

قال كامل منفعلاً: هذا إن كان بالفعل هو القاتل.

قال حمزة: وما أدراك إنه ليس القاتل؟

قال كامل: وما أيقنك أنت إنه القاتل؟ هل اعترف لك؟

قال حمزة مرتبكاً: لو لم يكن القاتل ما احتجزته النيابة.

قال كامل: ليس معنى احتجاز النيابة له إنه القاتل فمازالت التحقيقات مستمرة. لقد تقابلت مع وكيل النيابة الذي يحقق معه فأخبرني إنه لو علم أين كان أدهم وقت ارتكاب الجريمة لأفرج عنه.

قال حمزة: ولماذا لم يخبرهم بمكان تواجده إن كان بالفعل بريئاً؟

هنا أتت ديما من الداخل قائلة:

_ لأنه كان معي.

جلست نادية مع الرجل الغريب داخل شقتها، وبدا عليها الحزن الشديد، وقالت: كيف سنخرج أدهم من هذه الورطة؟

قال الرجل الغريب: لا تقلقي يا نادية فمؤكد سيخرج أدهم من محبسه في أقرب وقت.

قالت نادية: أرجوك لا تتركني هذه الفترة. أنا بالفعل في حاجة إليك هذه الأيام.

ابتسم الرجل الغريب وقال: عجيب أمر هذه الحياة. من رأك وأنت تحدثيني منذ أسبوع فقط لن يصدق إنك نفس المرأة التي تحدثني الآن.

قالت نادية: حياة أدهم، ومستقبله أهم عندي من كل شيء.

قال الرجل الغريب: تأكدي أن ذلك يهمني أنا أيضاً. يهمني كثيراً.

نهض حمزة من مجلسه منفعلاً وقال لديما: ما هذا الذي تقولينه. هل جننتِ؟

قال هاني غاضباً: من فضلك يا حمزة لا تتحدث معها بهذه الطريقة.

قال حمزة: أعذرني يا هاني لكنها استفزتني بذلك الكلام.

قالت ديما: لقد كنت مع أدهم، وكنا نجلس معاً في كازينو على النيل ثم أوصلني لقبل منزلي بقليل ثم تركني.

قال حمزة منفعلاً: أنت تقولين هذا لتخرجي هذا الولد من محبسه ليس إلا.

قالت ديما: يبدو إنك نسيت أن القتيل هو أبي. فهل سأدافع عن أدهم لو كان هو الفاعل؟

بهت حمزة بينما قال العميد كامل: إذن فلنذهب صباح غد لمقابلة وكيل النيابة لتخبريه بذلك فيعطينا أمر بالإفراج عن أدهم.

قال حمزة منفعلاً: لكن كيف تسمحين لنفسك أن تلتقي بشاب وأنتِ مخطوبة لي؟

قالت ديما: أنا لم أوافق على تلك الخطبة.

قالت جملتها، وغادرت المكان متوجهة إلى غرفتها.

تم الإفراج عن أدهم، ووقف بين والدته، والعميد كامل، وهاني، وديما، ورغم إثبات براءته إلا أنه كان يبدو على وجهه الحزن فقالت له والدته: لماذا تبدو حزيناً يا أدهم؟

قال أدهم: لقد كان صعباً عليِ يا أمي تحمل ذلك الإتهام الشنيع بقتل عمي الذي كنت أحبه، وأقدره. حتى بعد أن رفض زواجي من ديما لم يتأثر حبه بداخلي.

ربت هاني على ظهره، وقال له: لا تحزن يا أدهم فلقد كنت أنا وأسامه كلنا ثقة في براءتك، ولم نشك لحظة واحدة فيها.

كانت ديما تستمع إلى كلام أدهم فاستشعرت ألمه ومرارته فانسابت العبرات من عينيها، وتمنت لو أنها تستطيع احتضانه لتعوضه بحنانها عن ذلك الألم.

وقال العميد كامل: أرجوك يا أدهم لا تغضب من حمزة لقد فهم الموضوع خطأ، ولقد طلب مني أن أبلغك اعتذاره.

ابتسم أدهم ابتسامة سخرية وقال: اعتذاره مقبول يا سيادة العميد. أشكرك.

قال كامل مبتسماً: والآن ما رأيكم أن أقوم بدعوتكم على الغداء في المكان الذي تختارونه.

قال أدهم: لا داع لذلك سيادة العميد فأنا متعب، وأريد الذهاب إلى البيت لأستريح.

واستأذن أدهم من الجميع، وسار مبتعداً عنهم، وسارت خلفه والدته بينما أخذت ديما تتابعه بعينيها الغارقتين في الدموع.

اتصلت ديما بأدهم، وكان الإثنان في حالة نفسية سيئة فغلف الحزن حديثهما، وقالت ديما: لمادا كان يبدو عليك هذا الحزن الشديد يا أدهم؟

قال أدهم: لقد شعرت بالإنكسار يا ديما. ففي الوقت الذي كان يجب أن أقف فيه جوارك يلقى بي في السجن وسط اللصوص، والقتلة، وبتهمة حقيرة. قتل عمي الذي اعتبره بمثابة أبي. ثم يأتي هذا المتكبر المغرور حمزة مستغلاً سلطته، ويقوم بضربي واهانتي داخل محبسي.

قالت ديما بغضب: يا له من حقير.

قال أدهم: لولا والده العميد كامل الذي أقدره، وأحترمه لانتقمت منه أشد انتقام.

قالت ديما: العميد كامل يحبك يا أدهم لقد لمست ذلك بنفسي فلقد كان في شدة الغضب على حمزة لأجلك.

****

بعد ذلك بعدة أيام ذهب حمزة، وجومانة لزيارة أسرة المهندس توفيق، وتسأل جومانة عن ديما فتخبرها والدتها إنها في حالة نفسية سيئة ولا تفارق حجرتها إلا قليلاً حتى كليتها لا تذهب إليها.

قال حمزة: كان الله في عونها فمقتل المهندس توفيق أثر بنا جميعاً فما بالك هي.

قالت جومانة: أنا أخشى عليها أن تصاب بالاكتئاب لذلك يجب أن نخرجها من حالتها هذه.

قالت والدة ديما: لقد حاول معها أسامة وهاني لكن دون فائدة.

قالت جومانة: أسمحي لي يا طنط أن أدخل إليها فلربما استطعت إقناعها أن تخرج معي أنا وحمزة فحمزة الآن خطيبها بحكم الإتفاق الذي كان قد تم مع عمي الراحل المهندس توفيق.

قالت والدة ديما: معك حق يا ابنتي. هيا ادخلي إليها.

غادرتهم جومانة فقال هاني: يبدو يا أمي إنكِ وحمزة نسيتما أن ديما ترفض هذه الخطبة.

قال حمزة: هذا كلام فارغ. لقد اتفقت أنا وأبي مع المهندس توفيق، وانتهى الأمر يا هاني. أم أن كلام والدك لم تعد له أهمية بعد أن توفى؟

قال هاني بحدة: ما هذا الذي تقوله يا حمزة؟ طبعاً نحن نهتم بكلام والدي، ولكن ديما لا تريدك.

قال حمزة بخبث: وأنت يا زوجة عمي هل سترمي بكلام عمي معنا إلى البحر. أم ستحافظين على وعده لنا؟

قالت والدة ديما: لابد أن يسير كل شيء كما أراده والدك يا هاني.

قال هاني: ولكن يا أمي..

قاطعه حمزة قائلاً: انتهى يا هاني. فبعد كلام الكبار لابد أن نصمت جميعاً.

نظر إليه هاني بغضب، وتركهما، ودلف إلى غرفته، بينما عادت إليهما جومانة فقالت لها والدة ديما: لماذا عدت سريعاً يا جومانة؟

قالت جومانة: لقد استقبلتني ديما بجفاء شديد، وأخبرتني إنها تريد أن تنام.

قال حمزة: هل أخبرتها إنني هنا؟

قالت جومانة: نعم أخبرتها.

وهنا رن جرس الباب فخرج هاني من غرفته، وفتح باب الشقة فوجد أمامه أدهم، وقد طالت لحيته، ودخل هاني مصطحباً أدهم إلى حيث تجلس والدته، وحمزة، وجومانة، وكاد الغيظ يقتل حمزة ما أن وقعت عيناه على أدهم.

قام أدهم بتقبيل رأس زوجة عمه، وأخذ يعتذر لها عن عدم حضوره إليهم الفترة الماضية، وقام بمصافحة جومانة ثم جلس دون أن يعير حمزة اهتماماً، وجلس يتحدث مع زوجة عمه وهاني بحزن بينما جلس حمزة ينظر إليه بكل كراهية الدنيا، وخرجت إليهم ديما، وقامت بمصافحة أدهم ثم جلست، وكأنها لم ترى حمزة الذي بدا عليه الغضب من ذلك التصرف فقال: ألا يوجد أحد آخر في هذه الجلسة سواه لتصافحيه وحده أم إنك لم تريني؟

قالت ديما بحدة: فعلاً يا حمزة. أنا لا أراك نهائياً.

ابتسم أدهم فنظر إليه حمزة قائلاً: علام تبتسم؟ ثم ما هذه اللحية. أصرت إخوانياً أم ماذا؟

قال أدهم مصطنعاً الابتسامة: هل هذه تهمة جديدة تريد إلصاقها بي؟ تأكد يا حمزة إنك لن تستطيع التخلص مني بتلك السهولة.

قال حمزة بجدية: وتأكد أنت إني لو وضعتك في رأسي فلن ترى الشمس مرة أخرى.

وساد الصمت الجميع دهشين مما قاله حمزة، وأخذوا ينظروا لبعضهم البعض، وانصرف حمزة، وجومانة، وبينما هما في الطريق قال حمزة وهو يقود السيارة: أرأيت كيف غادرت ديما غرفتها، وخرجت إلينا عندما جاء أدهم؟

قالت جومانة بحزن: نعم رأيت. قال حمزة بغضب:

لقد زاد الموضوع عن حده للغاية. لذلك لابد أن أفعل شيء يجعلهما يفترقان عن بعضهما للأبد.

****